مصر الاسلامية

للدكتور محمد هندور

ليس من شك فى أن الحضارة المصرية القديمة قد خلفت رواسب بمقليتنا الراهنة ، ولكننا نتركها الآن ما دام مظهرنا العام اليوم أننا أمة عربية ، ونقف عند مصر الإسلامية ، ونعنى بها تاريخياً مصر منذ الفتح العربى إلى الحملة الفرنسية ، ولهذه الفترة أهميتها فى كل محاولة جادة لإدراك مقومات حياتنا الثقافية ، وذلك لأن دراستها ستنتهى بنا إلى حقيقة كبيرة ، هى أن مصر المعاصرة ليست استمراراً لمصر الإسلامية . وبيان ذلك هو أن الحضارة العربية والثقافة العربية لم يطرد تقدمهما ببلادنا ولا اطرد جانب الخلق فيهما ، بل غلبت عليهما المحاكاة والصنعة بدلاً من الإبداع والأصالة ، حتى أنه عند بدء الحملة الفرنسية نستطيع أن نقول إن مصر الإسلامية كانت تحتضر فى معظم نواحى نشاطها الروحى بل والمادى . ولم يكن بد عندئذ إذا أريد لبلادنا أن تنهض من أن تقوم نهضتها على أساسين جديدين : هما بعث التراث العربى القديم الذى خلفه صدر الإسلام ببلاد الشرق العربى من جهة ، والأخذ عن الحضارة الأوربية مباشرة أو عن طريق الترجمة من جهة أخرى

وظاهرة اضمحلال الثقافة العربية بمصر فى تلك الفترة من الظواهر التاريخية الكبيرة التى تستحق الدرس . ونحن لا نريد اليوم أن نقف عند تقلب الحكم ببلادنا بين العباسيين والطولونيين ، والأخشيديين والفاطميين ، والأيوبيين والمماليك ، والأتراك العثمانيين وما كان فى عهد كل منهم من ضعف بلادنا السياسى أو قوتها ، وتأثير ذلك فى حياتها الروحية ، وإنما نريد أن نفسر الظاهرة على أساس ثقافى بحت

والذى يبدو لنا هو أن هذا التفسير لا يمكن أن يستقيم إلا إذا حددنا العلاقة بين الثقافة العربية فى مصر والثقافة العربية فى جزيرة العرب والعراق والشام حيث نبتت تلك الثقافة

وثمة حقيقة عامة فى تاريخ الثقافة العربية لها نظائرها فى تاريخ الثقافات الأخرى القديمة ، وهى أن تلك الثقافة قلما ازدهرت إلا حيث توجد السلطة السياسية ويوجد الأمراء الذين يرعون تلك الثقافة

ومصر فى عهدها الأول بالحكم العربى لم تكن منفصلة عن الخلافة لا فى عهد عمر وعثمان وعلى ، ولا فى عهد الأمويين أو العباسيين ، بل كانت تابعة تبعية محكمة ؛ ولهذا لم تقم بها سلطة سياسية مستقلة تستطيع أن ترعى الحياة الأدبية والعقلية ببلادنا وتحوط نفسها برجال الأدب والفكر كما كانت تفعل الخلافة . ومن هنا لم تنشأ ببلادنا بيئة ثقافية قوية كما نشأت ببلاد الشرق . وهناك مثل بسيط ولكنه دال على هذه الحقيقة هو مثل الليث ابن سعد ، فقد نبغ هذا العالم الكبير فى علوم الدين حتى شهد له الإمام الشافعى بالتفوق على الإمام مالك نفسه ، ومع هذا لم يستطع عالمنا المصرى أن يكون مذهباً . ولقد علل الشافعى ذلك بقوله : « إن أصحاب الليث لم يقوموا به » وفى الحق أن التفسير الصحيح هو نشأة الليث بمصر وتبعية مصر عندئذ لبلاد الشرق العربى وعلماء الشرق العربى ، وعدم استقلالها سياسياً وروحياً

وفى القرن الثالث الهجرى انفصل الطولونيون بمصر ، وأخذت بلادنا تستقل بحياتها الروحية ، كما استقلت بحياتها السياسية وكان من المنتظر أن تنشأ عندنا حضارة إسلامية لها طابعها الخاص

الأخرى ، وأولتها من الحفاوة والعناية أكثر مما أولت لغاتها أحياناً ، فصارت لغة العلوم والآداب للعرب وغير العرب حقباً طويلة ما بين أقصى المغرب وأقصى المشرق . ولا تزال على تبدل الأحوال وتوالى الغير لغة أدب وعلم فى الأمم الإسلامية غير العربية . ولا تزال هذه اللغات مترعة بألفاظها ولا تزال تستمد العربية

وقد حوت على مر العصور أدباً لا تحويه لغة أخرى . أدب موطنه ما بين الصين إلى بحر الظلمات ، وزمانه أربعة عشر قرناً ، ولا نعرف فى آداب العالم قديمها وحديثها أدباً اتسعت به المواطن هذا الاتساع ، وامتدت به الأعصار هذا الامتداد

فالعربية بأهلها وموطنها خصائصها وآدابها وتاريخها ، والعربية بقرآنها ، خالدة باقية على الخطوب والعصور لغة دين وعلم وأدب وحضارة وإنسانية . فهل تنصرها هم أبناؤها وتستجيب لها عزائمهم ؟

عبد الوهاب عزام

أو على الأقل لها قوتها على الأصالة والخلق . ومع ذلك نستطيع أن نقول بوجه عام إن هذه الظاهرة أيضاً لم تتحقق

والسبب فى ذلك هو أن وقت انفصال مصر جاء مع الوقت الذى أخذ فيه الأدب العربى ينقلب انقلاباً خطيراً نحو المحاكاة والصنعة بدلاً من الابتكار والطبع ، وجارت مصر هذا التيار العام الذى انتهى بتجفيف ينابيع الخلق الأدبى الأصيل فى بلاد الشرق العربى وفى بلادنا على السواء

وانقلاب الأدب العربى نحو المحاكاة والصنعة ابتداء من القرن الثالث الهجرى من الظواهر التى أفقرت الأدب العربى ، وكان لها فى تاريخ الأمم العربية كلها أسوأ الآثار

فالذى نلاحظه هو أنه منذ ذلك التاريخ أخذ علماء اللغة والنقاد ينظرون إلى الأدب الجاهلى والأموى وأدب الصدر الأول من العباسيين نظرة تقديس دفعهم إليها دخول الأعاجم بين العرب وتطرق اللحن إلى اللغة وشعورهم بالحاجة إلى المحافظة على صحة تلك اللغة حتى لا يدب الفساد فى لغة القرآن والحديث أو تنحرف مدلولاتها عن وضعها الأول . ووقفت نظرة العلماء والنقاد على الأدباء والشعراء فاضطروا أن يحاكوا القدماء لا فى اللغة فحسب ، بل وفى موضوعات القول وبناء القصائد ، وهكذا استقرت ظاهرة المحاكاة حتى أصبح هؤلاء الشعراء وأولئك الأدباء عبيداً للقديم وكأنى بهم يرقصون فى السلاسل

وإلى جانب هذا التيار العام — تيار محاكاة القديم المسمى فى تاريخ الأدب العربى بتيار عمود الشعر — أخذ يظهر تيار آخر معظم رجاله من الشعراء الأعاجم حاولوا أن يجددوا ، ولكنهم لم يستطيعوا أن يتحرروا تحرراً تاماً ؛ فحافظوا على بناء القصائد كما حافظوا على موضوعات القول ولم يجددوا إلا فى الصياغة وكونوا مذهباً هو المعروف بمذهب البديع أى المذهب الجديد . ورأس مذهبهم هو مسلم بن الوليد وبشار وأبو نواس وأخيراً أبو تمام فهو الذى وصل بمذهبهم إلى غايته

مذهب البديع هو مذهب الصنعة . ومن هنا لم يلبث هذا اللفظ أن تطور فأصبح يدل على علم بذاته هو علم المحسنات اللفظية كما فصل موضوعاته أبو هلال العسكرى فى كتابه المعروف « بالصناعتين » صناعة الشعر وصناعة النثر

والصنعة فى الشعر والنثر من أخطر الآفات التى تهدد الفكر والإحساس عند التعبير عنهما ، حتى لأخالها تسمى الرأى وتذهب بصدق الإحساس ، وذلك لأمر بين هو أن الشاعر أو الناثر الصانع المتكلف يفكر ويحس مرتين : مرة ليدرك الإحساس أو الفكرة ، ومرة ليحتال عليهما حتى يسكنا إلى اللفظ وفى هذا إفساد لهما

وهكذا ظهرت المحاكاة كما ظهرت الصنعة فى الأدب العربى ، وصادف ذلك بدء نشوء أدب مصرى مستقل ، فغلبت المحاكاة وغلبت الصنعة على أدبنا نحن أيضاً كما قلنا ؛ واستمرت الأمور تسوء برغم فترات الانتعاش التى اهتزت فيها بلادنا بأحداث ضخام بددت المحاكاة أو مزقت الصنعة لوقت ما كالدعوة العلوية أيام الفاطميين والحروب الصليبية أيام الأيوبيين

وجاء حكم الأتراك العثمانيين بما صحبه من ظلمات ومظالم جففت منابع الحياة الروحية ببلادنا ، حتى إننا عند بدء الحملة الفرنسية نبحث عن أدب مصرى عربى فلا نجد إلا شعراً متكلفاً سخيفاً أو نثراً مسجوعاً يدعو إلى الضحك ، أو كتابة مهلهلة كتاريخ الجبرتى الذى تكاد لغته تمس اللغة العامية

وانتهت الحملة الفرنسية وجلس محمد على على عرش مصر فأدرك بفطرته السليمة أنه لا بد لإنهاض هذه البلاد من أن يقطع التيار ؛ فيعود إلى التراث العربى القديم يبعثه ، كما يتجه ببعثاته إلى أوربا حيث كانت الحضارة الحقة كما سنرى

محمد مندور

إدارة البلديات العامة

تقبل العطاءات بمجلس جرجا المحلى حتى ظهر يوم الاثنين ١٩ يونيه سنة ١٩٤٤ عن توريد ٣٠٠ أردبا من الشعير ويجب أن ترفق العطاءات بتأمين ابتدائى قدره ٢ ٪ من قيمتها وتطلب الشروط من المجلس على ورقة دمغة فئة ٣٠ مليما

٢٢٤٩